الفهم المعاصر للفلسفة البراغماتية

تعرف البراغماتية لغةً بأنها "الاستشراف العملي"، و"البراغماتي" يعني العملي. وهي كلمة مشتقة من "اللفظ اليوناني براغما pragma ومعناها العمل". التي اشتقت منها كلمتا ((براكتس practice وبراكتيكال practical)) أي عمل وعملي وتأتي منها كلمة مزاولة. وقد استعار الرومان المصطلح، واستعملوا عبارة pragmatics وقصدوا بها المتمرس في المسائل القانونية. وتعرف باسم البراجماتية والبراغماتزم والأداتية ويترجم مصطلح (pragmatism) الى العربية بـ ((الذرائعية)).

اما المعنى الاصطلاحي لكلمة البراغماتية: فتطلق على المذاهب الفلسفية التي ظهرت في امريكا على يد الفيلسوف (تشارلس ساندرس بيرس)، وتطورت على يد (وليم جيمس) و(جون ديوي). ويقرر هذا المذهب إنَّ العقل يحدد هدفه حين يقود صاحبه الى العمل الناجح؛ فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة، أي الفكرة التي تحققها التجربة والا يقاس صدق القضية الا بنتائجها العملية (وان معيار الحقيقة هو العمل المنتج وليس الحكم العقلي).

رواد الفكر البراغماتي

أولاً: تشارلز ساندرس بيرس (تشارلس بيرس 1839-1914)

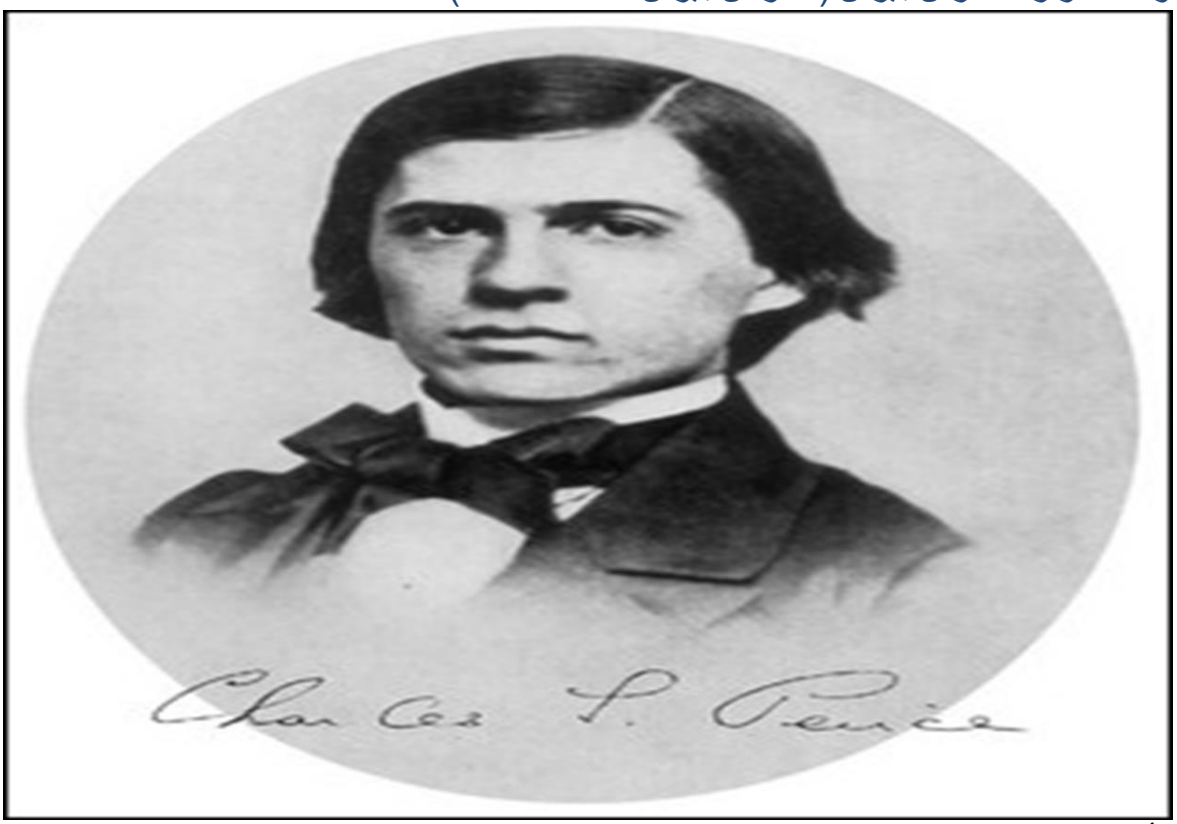

يعدُّ أول فيلسوف امريكي اعطى للفلسفة الامريكية أصالتها وتميزها، وهو على حد قول (برتراند رسل) اعظم مفكر امريكي. اهتمَّ بالمنطق والفلسفة، فدرس المنطق وحفظ عن ظهر قلب كتاب (نقد العقل المحض) للفيلسوف الألماني كانط، مما كان له الأثر البالغ في دراسته للفلسفة البراغماتية.

كان بيرس يحلم في التدريس في الجامعة لكن حلمه لم يتحقق إلا مرتين. مرة في جامعة جون هوبكنز ولم يستمر في التعيين إلا خمس سنوات وطرد منها بسبب انتقاده للدين المسيحي؛ فهو يرى بان الايمان بوجود (الله) هو ايمان غريزي ليس له علاقة بأي شيء. وهذا ما اثار مخاوف جامعة (جون هوبكنز)، وهي ما زالت في بداية النشأة من أن توصم بعد بالإلحاد. المرة الثانية جاءت دعوته لتدريس المنطق في جامعة هارفارد وبمساعدة صديقه الحميم (وليم جيمس)، غير

ان سوء الطالع كان يلازمه دائماً، إذ إنَّ نزاعاً نشب بينه وبين أمين جامعة هارفارد جعل امر تعيينه ضرباً من المحال.
توفي (بيرس) في 9نيسان 1914م منهكاً بين الحرمان ومرض السرطان الذي كان قد اضناه منذ سنتين. وبعد وفاة (بيرس) قام قسم الفلسفة بجامعة هارفارد بشراء مخطوطاته غير المنشورة من أرملته، وقد وجدت في حالة غير منتظمة تقريباً ولكن في عام 1931م، وبفضل جهود الكثير من الباحثين الامريكان، فان هذه المخطوطات محصت وجمعت بشمولية اختير جزءاً منها ونشر مع اعمال (بيرس) المنشورة في ستة مجلدات تحت عنوان (الاوراق الكاملة) تشارلس بيرس وقد اكمل هذا المشروع بظهور مجلدين آخرين عام 1958م.

ثانياً: وليم جيمس 1842-1910

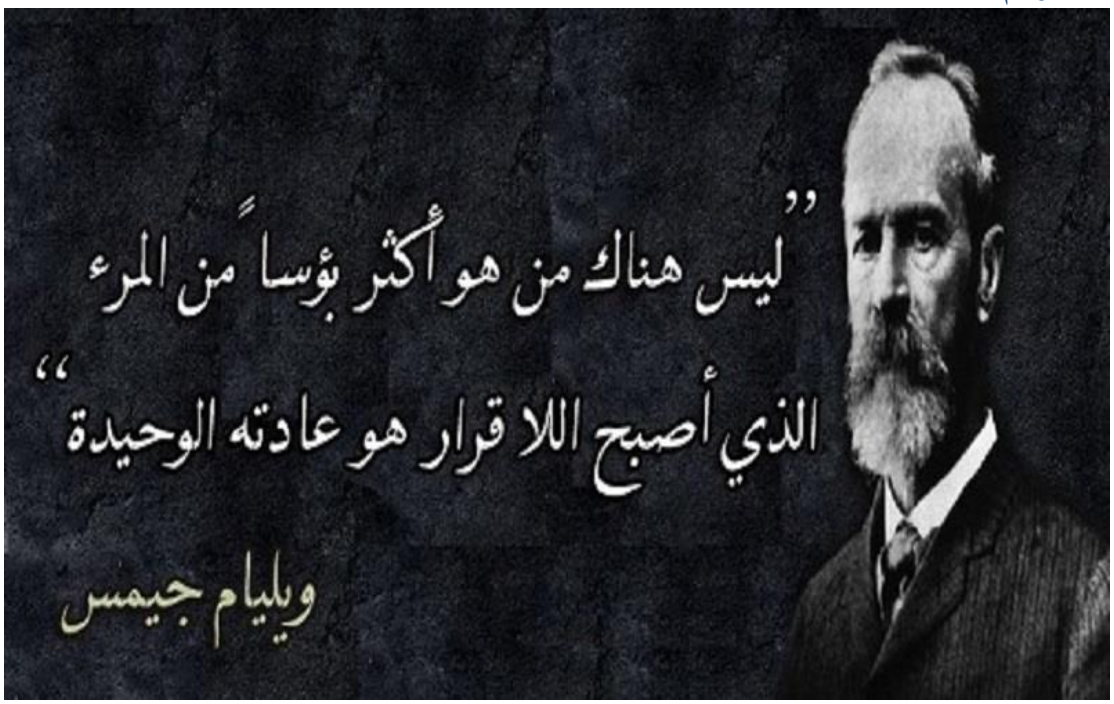

ورث (وليم جيمس) عن ابيه ميله الى طرق دروب التفكير البعيد عن العقيدة القويمة، وكذلك اهتمامه العميق بالقيم الاخلاقية والروحية، وخاصة بالأيمان الديني والاندفاع القوي نحو الروحانية. يرى جيمس بان الحقيقة ما هي الا فرضية يفترضها الانسان كي يستعين بها على حل مشكلات الحياة.
وتتميز فلسفته بأنها فلسفة منفتحة متسامحة وفردية الى اقصى حد، ومتفائلة تماماً وبعيدة عن التزمت والجمود المذهبي، فضلا عن كونها فلسفة تعددية وترتكز الى الحرية التلقائية بحيث يمكنها التلاؤم بسهولة مع التعريفات أو المدارس الفلسفية السائدة.
يقسم (جيمس) المفكرين بحسب امزجتهم على قسمين: اصحاب العقول الصلبة واصحاب العقول الطيعة أو المرنة. يتميز الفريق الاول بنزعته التجريبية وبتعويله على شهادة الحواس وبتشاؤمه وتشككه في الدين، اما الفريق الثاني فهم المثاليون المتفائلون المتدينون. يأخذ جيمس من الفريق الاول تجريبيته وتعدديته واعتماده على الخبرة الحسية، ويأخذ من الفريق الثاني تدينه وتفاؤله.
توفي (وليم جيمس) في 26 اب في العام 1910م تاركاً وراءه العديد من المؤلفات، اهمها (صنوف التجربة الدينية 1902) وكتاب (البراغماتية 1907) وألف كتاب (بعض مشكلات الفلسفة) ونشر في 1908م كتاب (الكون المتعدد) وفي عام 1909 نشر كتاب (معنى الحقيقة).

ثالثاً: جون ديوي 1859 -1952م.

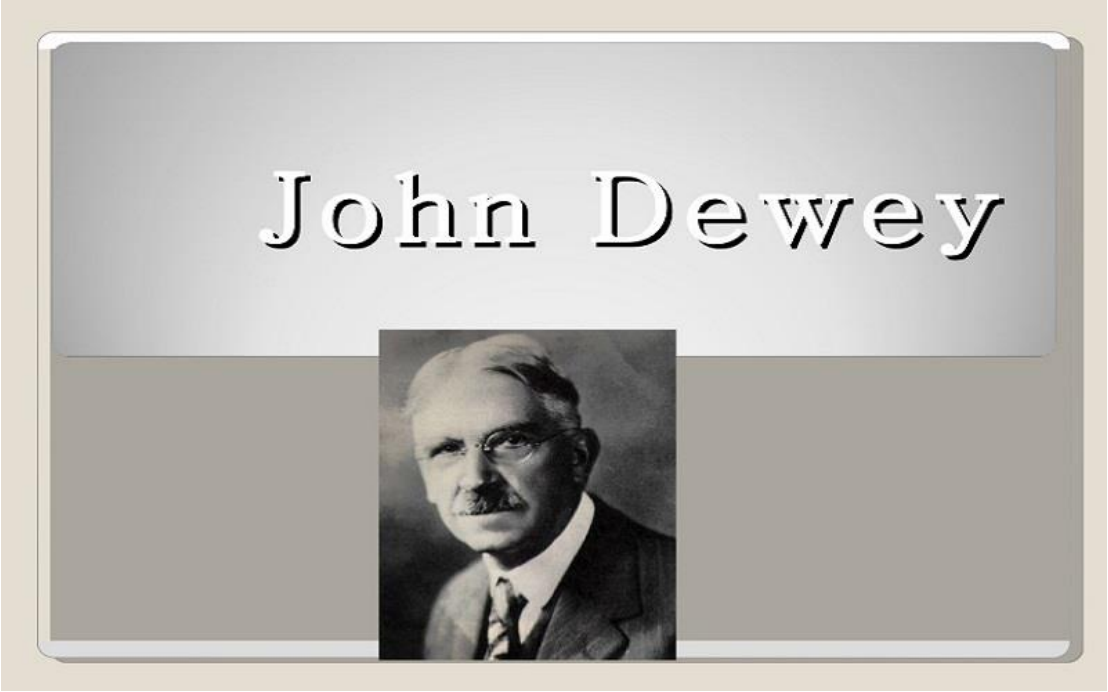

من أشهر أعلام التربية الحديثة على المستوى العالمي. تميزت فلسفته بالشمول والعمق والدينامية، وبروح انسانية مناهضة للتعصب. وقد ذاعت شهرة (ديوي) على الاخص بوصفه مفكراً تربوياً يروم اصلاح مناهج التربية على أساس من آراء اجتماعية متشددة في شأن الطابع الاجتماعي للتربية.

ديوي ليس نفعياً ولا فردياً. واذا كانت البراغماتية قد عُدّت عند بعض الباحثين "فلسفة نفعية بمعناها الحسّي الفردي، فأن براغماتية (ديوي) ليست نفعية، واذا عُدّت البراغماتية فلسفة عملية تؤكد النتائج العملية في حدود ضيقة ومباشرة وفردية، فأن براغماتيته ليست عملية، واذا عدت ذرائعية بالمعنى الذي تكون فيها الذرائعية ذات طابع انتهازي لتحقيق غايات فردية ومنافع محدودة، فأن براغماتيته ليست ذرائعية، واذا عدت البراغماتية وسيلة بالمعنى الذي تسوّغ فيه الغاية الوسيلة مهما كان مبلغ ابتعادها عن المصالح والاهداف الاجتماعية، فأن براغماتيته ليست وسيلة". من اهم مؤلفاته: (الفردية قديما وحديثا، الفلاسفة الامريكان، المدرسة والمجتمع، الديمقراطية والتربية، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، الحرية والثقافة، نوابغ الفكر الغربي، الخبرة والتربية).

تتوزع فلسفة ديوي على ثلاث أقسام:

- نحو المجتمع: وكان ديوي من خلالها يطمح لبناء مجتمع ديمقراطي وفلسفة علمية لوضع توازن فيه قيمة الفرد مع قيمة الجماعة والمجتمع. وبرأي ديوي ان النظام الصحيح هو الذي يحقق المرونة بعلاقة الفرد بالمجتمع الذي ينتمي اليه ويعيش فيه.
- نحو التربية: بالنسبة له، تطورت الحياة وأصبح المجتمع الأمريكي مجتمعا صناعيا. وبرأيه المدرسة يجب أن تكون مجتمعا صغيرا تدب فيها الحياة. فكان يدعو ديوي إلى التربية المستمرة التي لا تتوقف عند سن معين، فالتربية هي من المهد إلى اللحد وليست جرعة تعطى مرة واحدة والى الأبد بل هي بحاجة إلى الاستمرار؛ لأن العلم لديه دائما شيء جديد يوافينا به. ونظرته نحو التربية ترتكز الى التعلم من خلال العمل والعمل اليدوي وحل المشاكل بطريقة سيكولوجية دون جرح مشاعر الطلاب، وأن المدرسة هي مختبر وليست قاعة محاضرة. ويرفض ديوي نظرية جون لوك التي ترى بأن "الإنسان يولد وعقله صفحة بيضاء خالية من الكتابة". فالعلاقة الصحيحة، برأي ديوي، قائمة على

التفاعل، وهذا يعني أن طريقة التدريس الملائمة هي التي تعتمد على الحوار وحل المشكلات والتعلم الذاتي.

- نحو حل المشاكل: وضع ديوي كتابا سماه "كيف نفكر وكيف نحل المشاكل" ووضع خمس مراحل لحل أي مشكلة وهي:

1- الشعور بالمشكلة.
2- تعريف المشكلة وتحديدها.
3- وضع الفرضيات واقتراح الحلول.
4- التحقق من التجربة أي اختبار الفرضيات.
5- الوصول إلى النظرية والتعميم.

رابعاً: ريتشارد رورتي 1931- 2007

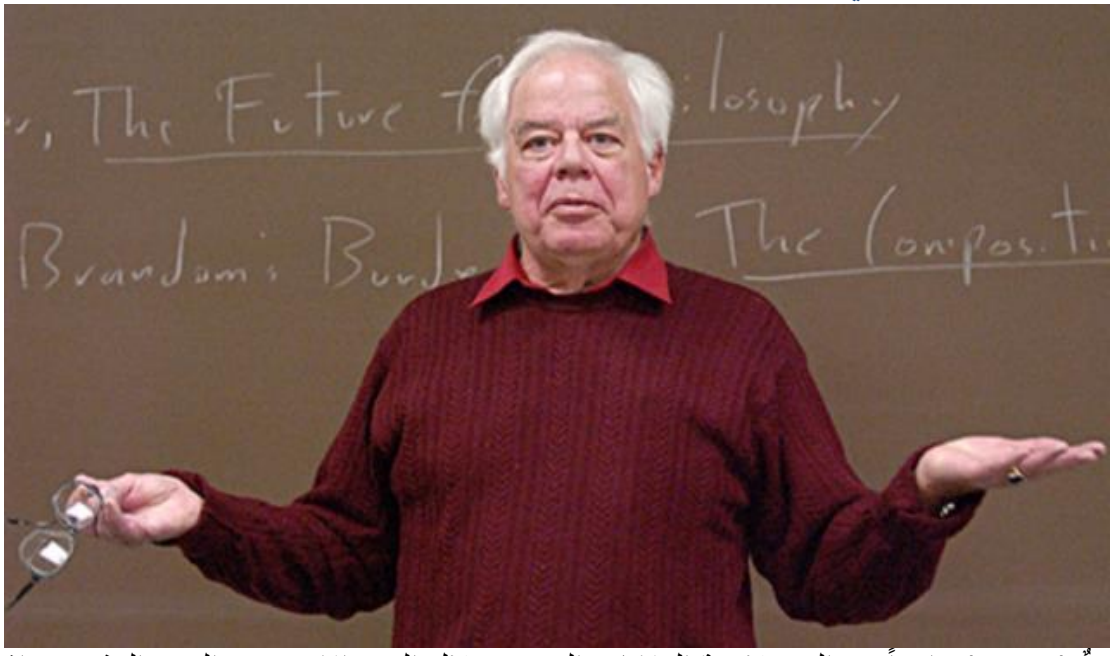

يعدُّ (رورتي) واحداً من المع فلاسفة الولايات المتحدة خلال الربع الاخير من القرن العشرين، اذ كانت له اسهامات كبرى في ميادين الانسانية والفلسفة والآداب.
أعاد دراسة الفلسفة البراغماتية وأسماها بالبراغماتية الجديدة.
وميزة (رورتي) أنّه أعاد الاعتبار بشكل ما للبراغماتية وجعلها محط انظار الساحة العالمية. ومن كتاباته (آثار أو عواقب البراغماتية) وكتاب (الأمل بدل المعرفة) و(الفلسفة ومرآة الطبيعة).

ثوابت الفكر البراغماتي:

يقدّم هذا المبدأ البراغماتي اتجاهات جديدة تماماً للبحث الفلسفي، فهو يبعدنا عن التأمل الميتافيزيقي.
تؤكد البراغماتية أن لا وجود لحقائق مطلقة، بل لمعارف نافعة اثبتتها التجربة أو تخلت عنها.
وهذا ينطبق على العقائد العادية وعلى المعارف العلمية والقيم الاخلاقية والسياسية.
إنَّ القوانين ليست أبدية لأنها وضعت لتسد حاجة من الحاجات الاجتماعية الراهنة. كما ان الآراء الثابتة لا محل لها في السياسة والدين والاقتصاد والعلوم الطبيعية.
الصدق والكذب والحق والباطل والصواب والخطأ، كلها مفاهيم نسبية وليست مطلقة.
الفكر البراغماتي فكر مستقبلي لا ينظر الى التاريخ والماضي.
انواع البراغماتية
البراغماتية الإنسانية: الفيلسوف والمفكر الانكليزي "شيلر" 1864- 1937 م الذي طورها الى ما اطلق عليه اسم "المذهب الانساني".

البراغماتية التجريبية: وتـــــــــــرى ان الحــق هو ما يؤدي الى عمل، بمعنى ما يكون متحققاً بصورة تجريبية.
البراغماتية البيـــولوجية: او بعبارة أدق الرؤية البيولوجية للبراغماتية، وهي ترتبط بـ (جون ديوي). وترى أن الفكر انما يهدف لمساعدة الكائن العضوي ليتوافق مع بيئته، فالتأقلم الناجح المؤدي الى البقاء والنمو هو بمثابة المعيار لصدق الافكار.

سمات الفكر البراغماتي

- اعتماد النفع وحده للإنسان.
- تقديس العمل.
- التغيّر والنسبية.
- الفرديـــــــــة.

الأصول البراغماتية في الفلسفة اليونانية

هيراقليطـــــــس: اذ كان يؤمن بفكرة التغيّر المستمر، ومن أهمّ أرائه بأن الحقيقية المطلقة لاوجود لها، وعدم وجود حقائق ثابتة ولا قيم مطلقة. وهذا الافكار ضاربة في أسس الفكر البراغماتي المعاصر.
السوفسطـائيـــــة: يمكن عدَّ السوفسطائية اول المدارس الفلسفية التي ساعدت البراغماتية في تكوين جزء من أطروحاتها الفلسفية ذات الابعاد الانسانية، سواء فيما يتعلق بطروحاتهم الفكرية والعملية. ويقول الفيلسوف اليوناني (تراسيما خوس) "ان العدالة هي منفعة الاقوى".
سقـــــــــراط: وربما يكون أثر سقراط متأتياً من نظريته الاخلاقية، فكيف ينظر الى فضيلة الخير وارتباطها بعلم الانسان والى الشرَّ وارتباطه بجهله.
افلاطـــون وارسطـــو: قد اسهما مساهمة كبيرة في خلفية البراغماتية، وعلى سبيل المثال التركيز على التجربة بوصفها مكوناً من مكونات المعرفة
الأبيقورية: ان الابيقورية بوصفها فلسفة ابتعدت عن القول التقليدي بالصدق المطلق أو الحقيقة المطلقة، وإنَّ اللذة وحدها هي الخير على الدوام، إذ لا يرى في الحقيقة والفضيلة قيمة في ذاتها، بل فيما تحققه من لذة وسعادة.
الرواقية: مؤسسها "زينوس"، ان الطريقة البراغماتية قد مارسها الرواقيون، وقد كان للجانب الاخلاقي لدى الرواقية تأثيرُ في البراغماتية، قد استمد من قول الرواقية (غاية الانسان هي العمل). وترى ان الحق قيمة نسبية وليست مطلقة، فهي تنفي ثبات المبادئ وتؤكد ثبات الاخلاق العملية.

اصـــول البراغماتية في الفلسفـــة الغربية الحديثة

كوبرنيـــق: فقد رأى بان صحة الفرض تقوم على ملائمة الواقع، ومن هذه الناحية كانت نظريته صحيحة.
ميكافللـــــــــــي: ولعل عبارة المشهورة (الغاية تبرر الوسيلة) هي بحد ذاتها تمثل صيغة للنفعية والبراغماتية، وتسويغ وسائلها التي تؤدي الى النجاح.
المدرســـة التجريبية: وقد دعت الى القول بان التجربة أو الاحساس هو مصدر المعرفة، وكان لآراء "فرانسيس بيكون" ومن بعده (جون لوك، وهيوم، وباركلي)، فضلاً عن أفكار "توماس هوبز، وجان جاك روسو".
المدرسة النفعية: تعد من اهم المدارس التي تأثرت بها البراغماتية التي ظهرت على يد (ادم سميث) وكذلك في المذهب الاخلاقي عند (هتشون) وتطورت بفضل (بنثام) و(جيمس مل) الذي جعل من ابنه (جون ستواريت مل) داعية اخر لمذهبه في النفعية. ومن الجدير بالذكر ان (وليم جيمس) قد ابتدأ كتابه (البراغماتية) بالإهداء قائلا فيه "الى ذكر جون ستوارت مل الذي كان أول من علمني سعة الافق البراغماتي والذي يطيب لخيالي ان يتصوره كقائد لنا لو كان حيّاً".

كانط واوكسنت كونت (صاحب النظرية الوضعية): كانط الذي ميز بين أنشطة العقل العملي وانشطة العقل الخالص، ونقد كثيرا للتفكير الميتافيزيقي التأملي. يعتقد أحد الباحثين ان اهمية الاخلاق الكانطية نابعة من رغبة (كانط) في الوصول الى النفع الذي يعم الجميع ويصبح قانوناً كلياً. أما كونت فقد اسهم في بلورة الفكر البراغماتي من خلال رفضه للميتافيزيقيا، وتأكيده على أن الفكر متحد مع العمل، وكان من انصار المنهج العملي التجريبي.

اصول البراغماتية الأمريكية:

الاتجاه الدينـــــــــي: من خلال التسويق السياسي للدين الأمريكي العملي.

عصـــر التنوير: يظهر هنا دور فرانكلين وجيفرسون ودور افكار "جون لوك".

العصر الرومانسي الأمريكي: وهنا يظهر دور امرسون ومن بعده "ثورو" 1817 - 1862م، وقد حاولت النزعة الرومانسية تحرير الفرد من القيود التي يكبله العقل بها ومن تزمت العادات وقوة التقاليد.

الفلسفة الترنسندنتاليـة: فهي مذهب العقل المفتوح، وتؤمن بالعقل العملي، وان العقل النظري عاجز عن ادراك الحقيقة والجوهر. وتمثل النزعة، كما هو واضح، الصيغة الامريكية لفلسفة (كانـط).

النادي الميتافيزيقي: يمثل هذا النادي ولادة الفكر البراغماتي بشكل رسمي 1870م. وقد خرج بيرس من هذه الاجتماعات في النادي بمقالتين "تثبيت الاعتقاد" عام 1877و"كيف نجعل افكارنا واضحة" عام 1878. وكانت فكرة النادي لغرض مهاجمة الميتافيزيقيا.

الدين في الفكر البراغماتي

كان (جيمس) قد تعرض لازمة مرضية حاده في شبابه ثم شُفي منها بقبوله فكرتي العون الالهي والحرية الكفيلة بتغيير مصير الانسان، فأزداد أيماناً بالتجربة الدينية وبقدرتها على ان تساعد الانسان في موجود اعظم وهو الله.

ويربط الدين والعلم، فلهما الغاية نفسها وهي سعادة الانسان وقوته. ويقر بالاعتقاد بوجود الله على اسس براغماتية؛ لأنه اعتقاد يعمل ويحقق الرضا. وإن البراغماتية تستنتج الخالق للأغراض العملية. والبراغماتية لا تفرق بين الاديان السماوية.

وجود الله عند جيمس

يقول (جيمس) بشيء من السذاجة: "ان الله شيء يستخدمه المرء إذ إنَّ الابتهال اليه او الاكتفاء بحبه او بتبجيله او خشيته كل هذه طرق للسلوك اتجاهه، ومن ثم تعني بمعنى ـ طرقاً يلجأ اليها الناس لاستخدامه من اجل تحسين احوالهم.". ولا يقتصر (وليم جيمس) على القول بأن الله يعنينا ويشدَّ من أزرنا، انما يذهب ايضاً الى أن الله في حاجة الينا، كما نحن في حاجة اليه انني لا ارى وهذا ما يراه (جيمس) ما يمنع من ان يكون وجود العالم اللامرئي متوقفاً الى حد ما على ردود افعالنا الشخصية بالنسبة الى مؤثرات الفكر الدينية. وفي مثل هذه الحالة ليس ما يمنع من ان نقول (ان الله نفسه يستمد من ولاءنا واخلاصنا عظمة وجوده ومقومات بقائه)، ومعنى هذا أننا بإيماننا بالله نؤدي لله أجل خدمة واعظمها، اذ نُسهم بذلك في تثبيت دعائم ذلك العالم المثالي.

البراغماتية والمرتكزات الفكرية الأمريكية المعاصرة

أولاً: المرتكز الديني: اتسقت طروحات الفلسفة البراغماتية مع الطروحات الدينية للمهاجرين الجدد أو ما اصطلح على تسميتهم (بالبيورتانيين) او (الطهرانيين)، الذين حملوا معهم العقيدة الدينية البروتستانتية ـ الكالفينية. من هذه الطروحات على سبيل المثال ما يقوله توكفيل "ان الدين في امريكا لا يقوم بدور مباشر في حكم المجتمع، لكن لا بد من ذلك باعتباره المؤسسة السياسية الاولى للأمريكيين". كذلك ما يقوله (هيرمان مليفل): "نحن رواد العالم وطلائعه.. اختارنا الرب، والانسانية تتطلع الى سلالتنا وتنتظر منا الكثير ونحن نشعر في مكنون انفسنا بالقدرة على فعل الكثير، لقد بات على أكثر الامم أن تحتل المؤخرة.. نحن الطليعة ننطلق الى البرية لنقدم ما لم

يستطيع أن يقدمه الأوائل". و (جورج واشنطن) اذ قال في خطاب رئاسته "أنه موكل بمهمة عهدها الله الى الشعب الامريكي وذلك في العام 1789". وقول بوش الأبن "إن الارهابيين يمقتوننا لأننا نعبد الرب بالطريقة التي نراها مناسبة".

ثانياً: المرتكز السياسي – والاقتصادي: تمثل الاطاريح الفكرية والفلسفية التي جاء بها عصر النهضة، وبخاصة ما يتعلق منها بالحرية الفردية، الاساس الذي أنبنى عليه الفكر السياسي والاستراتيجي للولايات المتحدة الامريكية. وذلك من خلال التأكيد على "الحرية الفردية" التي دعت إلى الحرية الاقتصادية وبعدها إلى الحرية السياسية، فمضمون الحرية الفردية هو الركيزة التي تعكس أولاً نظرة المجتمع الى الدور المنتظر من الفرد ونطاق فعاليته. وكانت الأفكار "هوبز ولوك وروسو ومونتسكيو" دور كبير في تطوير الحياة الأمريكية من خلال التأكيد على الحرية الفردية في السياسة والاقتصاد. ورفع شعار "دعه يعمل دعه يمر"، والتأكيد على "سياسة الباب المفتوح". وبذلك جاء لقاء الليبرالية مع البراغماتية من كونها ذات توجه مادي وضعي في الحياة السياسية واصبحت البراغماتية أحد ديناميات الليبرالية ومرحلة من مراحل تطبيق الفكر السياسي الامريكي.

البراغماتية الجديدة

البراغماتية الجديدة أو المحدثة أو النيو براغماتية pragmatism New هي التسمية التي تطلق على تيار فلسفي برز في الظهور مع بداية ستينيات القرن الماضي في الولايات المتحدة الامريكية مع أفول نجم الفلسفات التي عرفت رواجاً واسعاً في الأوساط الفكرية الامريكية قرابة عشرين عاماً، وبالخصوص الفلسفات التحليلية بداية من الخمسينات إلى غاية الستينات من القرن الماضي. من رواد البراغماتية الجديدة "كواين وكودمان وبوتنام وديفدسون"، فضلاً عن رورتي نفسه. والبراغماتية الجديدة هي الصيغة التي احتوت طروحات (رورتي) وقراءته المتميزة لكل من (ديوي وهيدجر وفتغنشتاين). وهي ايضاً الانفتاح والتسامح المذهبي الذي يلجأ فيه الفيلسوف إلى (دريدا أو هابرماس وليوطار).